المدن التاريخية من الثروات والكنوز في محافظة حضرموت

مدينة المكلا.. بين جمال الفن المعماري وجمال البحر

محمد محمد العرشي
alarachi2012@yahoo.com

المكلا ها نحن نقدمها للقارئ الكريم لتأكيد صدق ما ذهبنا إليه بأن اليمن غنية بمدارسها الإسلامية وثرواتها الحضارية على مستوى المحافظات والمديريات والعزل والقرى.

هناك جدل يتم الآن في مؤتمر الحوار من خلال لجانه حول المركزية واللامركزية، والإدارة المحلية والـدولـة الاتحادية والكونفدرالية.. وغيرها من المصطلحات الدستورية والقانونية، واستعراض العديد من التجارب الدولية والإقليمية والعربية وغيرها من التجارب، ونخشى أن يتم زرع نظام نظري لا يتفق مع البيئة اليمنية فيفشل كما فشلت النظرية الإشتراكية الماركسية في الجنوب. وأحب أن أذكر العديد من الحقائق التي قد ربما تلقي الضوء للأخوة المتحاورين، ولاشـك أن مؤتمر الحوار ولجانه مستوعبة لها لأن المشاركين في لجان مؤتمر الحوار هم خلاصة مثقفي اليمن الموحد:

أولاً: أن تقسيم اليمن إلى عدة دول اتحادية أو كونفدرالية ليس هو الحل؛ لأن مراكز القوى القبلية والحزبية في الشمال أو الجنوب سوف تستحوذ على كل إقليم سـواء في الشمال أو الجنوب، وسوف تكون مخرجات التقسيم هي نفس مخرجات المركزية. ثانياً: أن مرض الفساد الذي يسري في المجتمع اليمني سوف يسري إلى الدولة الاتحادية أو غيرها من المسميات الدستورية. ثالثاً: أن الإرهاب لا يعيش إلا في ظل الاستبداد والكبت، ونخشى أن تلجأ القوى الحزبية والقبلية والعسكرية إلى الكبت والاستبداد اعتقاداً منها أن هذا هو الحل. رابعاً: الحل ليس هو حـرق مراحل تطور المجتمع، والحل هو بناء الإدارة المحلية أو الاتحادية مرحلياً على مستوى كل إقليم أو محافظة، مع توفير كافة إمكانيات البناء من الأموال والأنظمة والقوانين والكوادر المدربة على المستوى المركزي واللامركزي، والقضاء على الفساد بكافة أنواعه. ولا يتأتى هذا إلا برفع الوعي المجتمعي، وهذا يحتاج إلى وقت طويل. خامساً: أن تطبيق الدستور وتفعيل القوانين لا يتسنى إلا من خلال تفعيل القضاء العادي والقضاء الدستوري والقضاء الإداري والقضاء الجنائي، وسيقال إنك تدعوا إلى مجتمع مثالي، إلا أن وعي الشعب سوف يحقق نوع من العدالة الاجتماعية ودولة القانون والنظام..

أخي القارئ الكريم ...

ومدينة المكلا هي أحد المدن الساحلية التي تقع على ساحل البحر العربي وكان موقعها في السابق يعرف بالخيصة وهي اليوم عاصمة محافظة حضرموت ولم تعرف كمدينة إلا في بداية القرن الحادي عشر الميلادي وقد ذكر المؤرخ صالح الحامد في كتابة تاريخ حضرموت أن مدينة المكلا هي المدينة التي بناها المظفر الرسولي في نهاية القرن السابع الهجري 670هـ وهو أحد ملوك الدولة الرسولية التي حكمت اليمن من 626هـ-858-هـ الموافق 1229م - 1454م، والتي كانت عاصمتها تعز، ومساحة مدينة المكلا 339كـم2 وعـدد سكانها 187.072 نسمة، وتطل على البحر العربي ويحدها من الشمال مديريتي المكلا وغيل باوزير، ومن الجنوب البحر العربي ومن الغرب مديرية بـروم، ومن الـشرق مديرية غيل باوزير، وتقع المدينة في منطقة سهلية بين البحر والجبل، وبيوتها مرتفعة مكونة من عدة طوابق ومطلية بالحبر الأبيض من الداخل والخارج، وهي تشبه شريط أبيض اللون تحف بها البحر ذو اللون الأزرق وخلفها جبل شاهق يبلغ إرتفاعه 600قدم وما بين قصورها ومبانيها لسان من الأرض وهو وسط المدينة، وقد تم قريباً إنشاء خور المكلا الذي تم إدخال مياه البحر إلى الخور الذي يبلغ طوله ألف وخمسمائة متر وعرضه 70 متر والذي أعطى لمدينة المكلا منظراً جمالياً وأضاف إلى جمالها الطبيعي جمالاً أخر شيده الإنسان اليمني المعاصر في ظل وحدته المجيدة، بالإضافة إلى انتشار المساحات الطبيعية المزروعة الخضراء بالإضافة إلى أشجار النخيل وأضـواء الكهرباء التي حولت ليل منطقة الخور إلى نهار، مما وفر لأبناء مدينة المكلا وزوارها مناظر خلابة قد لا تتوفر في أي مدينة يمنية أخرى.

وتمتاز مدينة المكلا بطابعها المعماري المختلف والـذي يمثل نموذجاً من الفن المعماري مميزاً عن الفن المعماري للمدن التاريخية اليمنية الأخـرى كصنعاء، وصعدة، وسيئون، وتريم، وشبام حضرموت، وترتفع مبانيها وكأنها تتسلق الجبل الذي يقف ورائها والذي يعرف بقارة المكلا وشواطئها رملية فضية ومحاطة بالبساتين الخضراء الجميلة وعلى مدينة المكلا ينطبق قول الشاعر:

فإذا نظرت إلى البقاع وجدتها
تشقى كما تشقى الرجال وتسعد

وقد شهدت مدينة المكلا نهضة عمرانية شاملة بعد قيام الوحدة اليمنية المباركة حيث أتسعت غرباً وشرقاً وقامت الكثير من الأحياء الجديدة والتي تكونت من عشرات المباني الجميلة، والشوارع المعبدة، والعديد من الطرق الجميلة والحدائق وقد أنشئت العديد من الفنادق والمستشفيات والمراكز العلمية والجامعة والتي تتكون من العديد من الكليات، وترتبط مدينة المكلا بمدينة سيئون بطريق إسفلتية جميلة بطول 320كم، كما يوجد في مدينة المكلا مطار دولي تم أخيراً تطويره وتوسعته.

أخي القارئ الكريم...

تخيل معي هذه المدينة التي جمعت بين جمال المباني البيضاء ومنظر البحر الأزرق والذي يطل عليه الجبل والبساتين الجميلة الخضراء وجمال خور المكلا أليس أن مدينة المكلا تكاد تكون مميزة على معظم المدن في العالم العربي وأداة جذب للسياح في العالم الذين يبحثون عن الجمال وعن الأصالة والتحديث.

ومن أهم معالم وضواحي مدينة المكلا:

قصر السلطان القعيطي

ويقع على لسان ممتد عند بداية مدخل المكلا، وقد أقيم هذا القصر في بداية القرن العشرين عام 1925م، ويتكون من ثلاثة أدوار ويحيط به سور وطابعه المعماري متأثر بالفن المعماري الهندي، ويتم استخدام هذا القصر في الوقت الحالي متحفاً.

حصن الغويزي

ويقع أمام مدخل مدينة المكلا في الشمال الشرقي ويعود بنائه إلى بداية القرن الثامن عشر في عهد سلاطين آل الكسادي وكان الهدف من إنشائه مراقبة الغارات العسكرية ويتكون من طابقين ويتم الصعود إليه عبر درج مرصوفة تصل إلى بوابته في الجهة الشمالية ويوجد به صهريج للمياه، أقيم على شكل مبنى، ويرتفع عن مستوى الأرض 1.20متر، والمبنى مقضض وتوجد به ساقيتين في الجهة الجنوبية والغربية مبنية بالأحجار. يتم من خلالهما إيصال المياه إلى صهريج المياه التابع للحصن.

مدينة غيل باوزير

وتعتبر من أهم ضواحي المكلا وهي مدينة صغيرة وجميلة وهادئة وتبعد عن مدينة المكلا بحوالي 30كم وعن مدينة الشحر 28كم، وهي تقع إلى الشمال الشرقي منها، وهي قريبة من مطار الريان، ومديرية غيل باوزير مساحتها 2418كم2، ويحدها من الشمال مديريتي غيل بن يمين ووادي العين وحورة، ومن الجنوب مديرية مدينة المكلا والبحر العربي، ومن الشرق مديرية الشحر، ومن الغرب مديريتي المكلا ودوعن، وعدد سكانها 48.800نسمة، وأول من سكن الغيل هو الشيخ عبدالرحيم بن عمر، وإليه ينسب الغيل الأسفل المسمى بغيل عمر، وقد بنى السلطان أبوطويرق الكثيري في القرن العاشر حصن الغيل، وبعد ذلك بنى القعيطيون حصن السلطان وقصر الباغ.

عين الحومة

وتوجد في مديرية غيل بـاوزيـر عين الحومة وتقع ضمن قرية القارة التي تقع شمال مدينة الغيل، ويذكر المؤرخون أن القارة هي أقدم من مدينة غيل باوزير وفيها جامع منسوب إلى السيد علي بن عبدالله المغربي بني في القرن الثامن الهجري وعين الحومة هي عبارة عن حوض مائي طبيعي دائري الشكل يبلغ قطرها 40متر وتشتهر الحومة بغزارة المياه المتواجدة فيها والتي يتم استغلالها في مجال الزراعة ويوجد فيها شبكة ري والتي أقيمت في منطقة جبلية وعرة وتتميز بالدقة الفنية والهندسية البديعة التي تعكس الخبرة اليمنية في مجال الري وإقامة القنوات المائية والمنشآت المائية.

وتتمتع مديرية غيل باوزير بمناخ معتدل على مـدار السنة وأمطارها موسمية وتسقط في فصل الشتاء، وأراضيها زراعية خصبة، وتتوفر فيها المياه بغزارة والتي تسقى بها أشجار النخيل وأشجار التبغ التي تعتبر أشهر أنـواع التبغ في اليمن. وقد شهدت مديرية غيل باوزير نهضة زراعية وذلك بفضل حب أهالي غيل باوزير للأرض واهتمامهم بالتربة الزراعية والمحافظة عليها وصيانتها مما أنعكس ذلك على تنوع المحاصيل الزراعية وجودتها ومن أهمها محصول التتن (التمباك)، ولايعتقد القارئ الكريم أن زراعة التمباك سهلة حيث أن زراعته شاقة ومكلفة ويتم ذري التمباك في الشتاء ويضل في الأرض ثلاثة أشهر يتم خلالها تسميد الأرض بالوزف السمك الصغير المجفف ومخلفات الطيور وبعد ذلك تقص أوراق الشجر وتعلق لمدة عشرة أيام في مكان يسمى العرشة تحت أشعة الشمس ثم ينقل إلى المخازن والتي تعرف في البابكة وهو مستودع كبير مقفل ويظل فيه ورق التمباك حوالي عشرين يوماً، ويتم بعد ذلك تحزيمه استعداداً لبيعه في الأسواق اليمنية الداخلة أو تصديره إلى الخارج.

أخي القارئ الكريم...

أليس أن الله سبحانه وتعالى قد منحنا الكثير من الثروات الطبيعية والعمرانية والزراعية والسمكية مما يجعلنا في مقدمة الشعوب وما علينا إلا أن نعمل بروح الفريق الواحد شعباً وحكومة على استغلال هذه الثروات على أسس علمية واقتصادية من خلال إدارة حكيمة ولا شك أن النتائج ستكون إيجابية لما فيه مصلحة الفرد والمجتمع.

وقد رجعنا إلى العديد من المراجع عند إعـدادنـا لهذا المـقـال ومنها: (صفة جزيرة العرب/ للهمداني)، (معالم الآثار اليمنية/ للمرحوم القاضي حسين السياغي)،، (الموسوعة اليمنية/الطبعة الثانية)، (تاريخ حضرموت/ تأليف صالح الحامد)، (حضرموت فصول في التاريخ والثقافة والـتراث/ جمعية أصدقاء علي أحمد باكثير - القاهرة)، (معجم بلدان حضرموت المسمى إدام القوت في ذكر بلدان حضرموت/ تأليف السيد عبدالرحمن بن عبيدالله السقاف، تحقيق إبراهيم أحمد المقحفي وعبدالرحمن حسن السقاف)، (الموسوعة السكانية/للدكتور محمد علي عثمان المخلافي)، (نتائج المسح السياحي في الفترة 1999-1996م)، (موقع موسوعة ويكيبيديا على الإنترنت).

انطباعات عن الشرق وشبه الجزيرة العربية

• أصدر مشروع "كلمة" للترجمة التابع لهيئة أبوظبي للسياحة والثقافة كتاب " انطباعات عن الـشرق وشبه الجزيرة العربية ... خيّال بولنديّ عند البدو 1817-1819م" للمؤلف البولنديّ الكونت فاتسواف سيفيرين جفوسكي ، ونقلته إلى العربية د.هناء صبحي من العراق.

قام الكونت البولنديّ فاتسواف سيفيرين جفوسكي بـين عامي 1817 و1819م، بسلسلة من الرحلات إلى تركيا وشمال شبه الجزيرة العربية (سوريا حاليًا) وكانت مهمّته شراء خيول لإعادة تأهيل مَرابض خيول ملكة فيرتمبرغ، ومَـرابـض خيَول سلطان الامبراطورية العثمانية وقيصر روسيا.

ولكي يقوم بعمليات الـشراء على أفضل نحو عاش جفوسكي عند بدو صحراء نجد الذين منحوه لقب الأمير تاج الفخر. في 1831 استولت شرطة قيصر روسيا على مكتبته، ولحسن الحظ كان جفوسكي قد أودعَ مخطوطة رحلاته إلى الشرق عند صديق احتفظ بالمخطوطة في بولندا.

لقد كُتبَ هذا النص الذي لم يُنشر من قبل بلغة فَرنسية عذبة ودقيقة وزُيّـنَ برسوم وتخطيطات حيّة عديدة، ويوضّح على نحو أصيل ثقافة لخيالة البدوية ويرسم صورة مجتمع متنوّع ومتحرّك في شبه الجزيرة العربية وفي الشرق الأدنى وآسيا الصغرى. إنّها قصة مغامرات لا تهدأ كثافتها الدرامية أبداً.

وقـد حَقّق المخطوطة التي عُـثِرَ عليها مصادفةً، فريق من الخبراء والمهتمّين في شؤون الشرق وشبه الجزيرة العربية لما تنطوي عليه من أهميّة كبيرة على المستوى التاريخي والاجتماعي والاقتصادي وكذلك الجغرافي إذ تتضمّن المخطوطة أسماء مُدن وأنهار وجداول اندثرت وحدود تغيّرت بفعل التحوّلات السّياسية للمنطقة.

ولد الكونت فاتسواف سيفيرين جفوسكي في 15 ديسمبر/كانون الأول 1784 في مدينة لفوف القائمة في شرقبولندا والتي تقع حاليّاً في أوكرانيا، في عائلة عريقة وثرية تنتمي إلى الطبقة الارستقراطية النبيلة. ترعرع في وسط عائلي متعدّد الثقافات إذ كان الخدم في بيت عائلته من القوزاق الأوكرانيّين وكـان قصر والديه في الريف يستقبل الكثير من المهاجرين الفرنسيين، كما يعيش على أراضيهم عدد كبير من التتار والتّجار الأرمن. كان والده، القائد الأعلى في الجيش، يتمنّى له الانخراط في الجيش أو في العمل الدبلوماسيّ لكنّ فاتسواف كان يشعر بميل شديد إلى اهتمامات زوج خالته، يان بوتوكي، المستشرق والرحّالة الكبير والكاتب الذائع الصّيت، فتتلمذ على يديه وتعلّم اللّغات الشرقية وثقافتها فأصبح لديه ولع شديد بالشرق وبرَع في لغاته. وكان جفوسكي مولعاً أيضاً ولعاً جمّاً بالخيول فدفعه شغفه هذا إلى السّفر إلى شبه الجزيرة العربية في رحلة كان هدفها الأول استيراد الخيول إلى أوروبا لكنها انتهت بعشقه لصحراء شبه الجزيرة العربية وخيولها وأناسها وتقاليدها، فأحبّه البدو بدورهم ومنحوه لقب تاج الفخر عبد النيشان. وكان شاهداً أثناء رحلته هذه على الكثير من أحداث العصر وأسراره في منطقة شبه الجزيرة العربية.

حصلت مترجمة الكتاب د. هناء صبحي على شهادة الدكتوراه في الأدب الفرنسيّ الحديث من جامعة السّوربون في باريس عام 1985. ودرّست اللغة الفرنسية وآدابها في كلية الآداب/ الجامعة المستنصرية، وكليّة اللّغات/ جامعة بغداد. وأشرفت على عدة أطروحات لطلبة الدراسات العليا. وعملت في المركز الثقافي الفرنسي في بغداد، كمسؤولة عن الترجمة والأنشطة الأدبية والثقافية وتدريس اللغة الفرنسية (-2005 1985).

شاركت في عدة مؤتمرات عالمية وتظاهرات ثقافية. وترجمت الكثير من الكتب، بينها «إنسانية البشرية» للفيلسوف الفرنسي أدغار موران، و«مسائل في علم الاجتماع» للفيلسوف وعالم الاجتماع الفرنسيّ بيير بورديو، ورواية «التحوّل» للروائي الفرنسي ميشيل بوتور. عملت مترجمة في وكالات الأمم المتحدة في جنيف وبغداد. حالياً أستاذة اللغة والأدب الفرنسيّ في جامعة باريس- السّوربون أبوظبي. ورد اسمها في «موسوعة أعلام العراق في القرن العشرين» لدورها المهم في خدمة الثقافة والأدب والترجمة في العراق.